« أحلام المدينة»

لـم أسـتيقظ كعادتـى علـى صـوت الشـيخ حَمديـن وهـو يـؤذن لصـلاة الفجـر مـن فـوق مئذنـة المسـجد الصغيـر الرابـض علـى مشـارف بلدتنـا أرمنـت الحيـط ، لـم أكـن أدرى أن كابوسـاً رهيبـاً كان فـى انتظـارى ، أفقـت هلعـاً علـى أصابـع يدهـا وهـى تتغـرز فـى أحشـائى ، وتشـدنى بحـدة مـن جلبابـى ، رحـت أفـرك منزعجـاً بظهـر يـدى الغشـاوة التـى كانـت ترين علـى عينـي ، خيـط الشـعلة الرفيـع المنبعـث مـن المسـرجة الزيتيـة فـى يدهـا الأخـرى كان يخفـت ويتوهـج متراقصـاً بارتعاشـات عشـوائية علـى قسـمات محياهـا الأسـمر الجـاف ، بـدت صورتهـا لـىّ لأول وهلـة مرعبـة وهـى تصـرخ فـى وجهـى آمـرة بصـوت أجـش مرعـب :

- كيف يأتيك النوم وسيد عبدالرحمن فى البلد ؟! .

رنـوت إليهـا رنـوة المندهـش ، أخـذت أردد الاسـم بصـوت فاقـد الذاكـرة ، ولايخلـو أيضـاً مـن حشـرجة ربكـة المفجـوء :

- سيد ، سيد عبدالرحمن !!؟.

لـم تطـق معـى صبـراً ، سـحبتنى بعصبيـة بالغـة مـن تحـت الغطـاء وهـى تصـرخ فـىّ بنبـرة مؤنبـة :

– أنسيت بهذه السهولة مَنْ نهش كبدى بأسنانه القذرة ، هيا، لقد وقع الفأر أخيراً فى المصيدة بعد سنوات طوال لم أذق فيها طعماً للنوم .

– لا ، لم أنس شيئاً .

كنا نتراسل بالنظرات الملتهبة ، يشق أسماعنا من الخارج صوت الريح وهى تصفر ، وتعبث بأوراق اللبلابة المتسلقة دوران بيتنا الطينى من الخارج ، ألمح ظلالها المترامية على أطراف نافذة الغرفة الخشبية المتهالكة ، أمامها وقفتُ متخشباً ، كانت تهزها بين يديها ، وتدفع فوهتها فى صدرى بعنف آلمنى ، قلت متنهداً وأنا أزيح بأطراف أناملى ماسورة البندقية العتيقة بعيداً عنى وقد عيل صبرى تماماً :

- ماهذه !!؟ .

- إذهب أو أذهب أنا .

عيناى كانتا تحدقان فى تينك العينين المكحولتين بسواد الغضب الدفين ، استدرت على كعب قدمى دورة كاملة وأنا فى غاية الغيظ ، رحت أنثر الأشياء يميناً ويساراً من تحت فراشى فى أنحاء الغرفة الواسعة ، ثم جعلت أسحب بحذر واضطراب شديدين الجريدة الصفراء من طرفها ، التفت نحوها وقد

استرسلت بلادعوة فى القراءة بذات العصبية ، بعدها سددت الجريدة قريباً من وجهها الواجم الشديد الشحوب :

- ألا تصدقين بيان وزارة الدفاع ، لقد مات بطلاً شهيداً على أسوار السويس الباسلة .

أشاحت بوجهها عنى ، سبقتها بسرعة إلى الأمام ناحية الباب كى أمنعها من الخروج ، بجسدى وذراعى ظللت واقفاً أمامها كالمصلوب وأنا أصرخ محتجاً :

- أنتِ عنيدة ، تركبين رأسك بلامبرر .

دفعتنى بقسوة من سبيلها ، وهى تحرقنى بنظرة ملتهبة وبضع كلمات قاتلة :

- تكون مارقاً مهدور الدم لو لم تثأر لأبيك كالرجال .

ترقرقت الدموع فى عينيها وهى تبكى بحرقة ولوعة شديدة، تنهدت يائساً ، دنوت منها لأقبل يديها ورأسها وبين عينيها الغائرتين ، ثم حملت همى الثقيل على كتفي ، مضيت وحيداً بين الحقول تحت جنح الظلام أهذى كالمجنون ، كانت الصور والذكريات تشتعل فى مخيلتى كاشتعال السماء فوق قرية أكياد البحرية ، جثث عشرات من الأطفال الأبرياء تتناثر بالدماء فى كل مكان على أطلال مدرسة بحر البقر الإبتدائية ، ليلتها لم تنم

المدينة التى اتشحها السواد من البحرين للنهر حتى رمال الصحراء المترامية الأطراف ، الأعين الدامعة باتت كلها مسهدة ترى حلماً واحداً لاترى غيره ، يقولون أن الخيال عندما يسيل على العيون تصبح الحياة جحيماً لايطاق ، كذلك أبى أصبح شبحاً لايطاق ، بدا مشمئزاً من نفسه وهو يرى الدمامة التى علت وجهه وتحت عينيه ، وحجمه الكبير الذى صار صغيراً كالصفر ، ذات الحلم كان يتراقص فى عينيه ، لم يبال وهو يرى نظراتها تطبق عليه من كل جانب ، راحت أمه تزجره صارخة وهو يلملم أشياءه متأهباً للرحيل ، تتبعه لاهثة كظله المضطرب :

- انتظر يامجنون لقد أديت الجهادية أتريد العودة إليها ثانية، عش لثأرك وأرضك ، لىّ ولزوجتك التى كافحت طويلاً من أجلها ، أتريد اليُتم لبذرتك التى لم تر نور الحياة بعد! .

دفعها عن ذروة الرغبة المتأججة فى صدره بصوت حانٍ وعينين شاردتين :

- ليتكِ الخنساء .

راح يلثم بطن أمى وهو يقسم قائلاً :

- والله لوكان بيننا الآن لما ترددت فى أخذه معى وليكن مايكون .

مازالت رغوة قبلته تبلل جبينى تحت أصابع يدى السمراء .

مـن بعيـد لاحـت لـىّ سـاقية أرضنـا كانـت سـاكنة بلاحـراك ، تميـل عليهـا وتتخلـل فرجاتهـا الأغصـان الجافـة ، وقـد ترامـت علـى أطـراف الصـورة الشـبحية المقبضـة أشـعة القمـر الفضيـة ، بعـد لأى ومعانـاة سـقط بصـرى فجـأة علـى شـئ مـا كان سـاجياً علـى الأرض كصخـرة سـوداء ، تقدمـت نحـو هـذا الشـئ متوخيـاً الحـذر ومشـهراً بندقيتـى العثمانلـى القديمـة :

- مَنْ أنتَ ؟ .

أسمع صوته يهتف بىّ فى أعماقى :

- أنا هو من خرجت فى الظلام من أجله .

جحظت عيناي ، قلت مندهشاً :

- فى أرضنا ، وبهذه السهولة ، يالجرأتك !! .

- أجل هأنذا بشحمى ولحمى ، هذا صدرى مفتوحاً أمامك ماذا تنتظر ، لقد سئمت الانتظار ، أريد أن أحيا بحق وحقيق .

فـى البدايـة ارتج علـىَّ الأمـر ، خرجـت كلماتـى مـن حلقـى طائشـة مثـل رصاصاتـى المكتومـة ، لامعنـى لهـا ، كلمـة مـا جعلتنـى أنتبـه إليـه بـكل جارحـة مـن جوارحـى ، كلمـة قيـدت لهـا سـمعى ، وأسـرت عينـي إلـى حيـث كان مكومـاً علـى نفسـه يغمغـم بشـفتيه :

-      إيِّـاك أن تظهـر ضعيفـاً أمـام نفسـك ، إرادتنـا هـى الشـئ الوحيـد الـذى نملكـه فـى حياتنـا ، حتـى جسـدك يمكنـك أن تفـك أزراره وتمضـى ! .

فتشـت فـى نفسـى طويـلاً عـن كلمـة واحـدة أحطـم بهـا جـدار الصمـت الرهيـب بـين كلينـا ، قلـت للمـرة العاشـرة بعـد المليـون ، وعينـاي تزيغـان فـى وجهـه الأسـطورى ، وترجوانـه أن يتكلـم :

-      ألا تنطـق أبداً ، هـل فقـدت فـى الحـرب لسـانك أيهـا العجوز، يقولـون أنـك كنـت بطـلاً مـن أبطـال العبور ؟! .

طالـت إطراقـة رأسـه إلـى الأرض ، رجـلاه كانتـا تدفنـان ظلـه الشـبحى فـى الثـرى بـلا فائـدة ، أكاد أسـمع الكلمـات التـى تـدور فـى أعماقـه :

-      هه ويقولون أيضاً أننى قاتل لئيم .

لحقـت بـه وهـو يتـوارى مختفيـاً بـين أجمـة مـن الأشـجار الكثيفة، رحـت أهـزه مـن كتفـه المهـزول بيـدى المرتعشـة وقـد ابتدرتـه متسـائلاً فـى حـدة بالغـة :

-      وأنتَ ماذا تقول عن فعلتك الشنعاء ؟.

إرتعبت نظراته المنطفأة ، مضى وكأنه يحمل جبلاً ثقيلاً على أنفاسه المتلاشية ، عيناي تمسكان به على حافة المدى البعيد شبه المظلم ، ألاحقه بصوتى الصارخ فى غضب جم :

- أنت تولينى ظهرك لأنك تعودت أن تأتى الأبرياء من ظهورهم ، تعلم أن الرجال بحق لايقتلون الناس من أظهرهم ، وأنت لم تكن رجلاً أبداً .

أصرخ فى نفسى مستعجباً لحالى :

- ياإلهى ، ماذا يمنعنى عن ضغط الزناد ، يالحظك التعس ياأبتِ، هأنتذا مكشوف الظهر فى خندق واحد مع الشيطان الرجيم.

فى ليلة من تلك الليالى الممطرة ، التى يبيت فيها القمر مختبئاً فى ثنايا الأعين السهرانة ، كان صوت مذياع مقهى بلدتنا المنطلق من القاهرة الكبرى يردد اسمه المشئوم ، وينادى عليه ، وجمع من المصفقين لرجل لم يحضر الحفل العظيم ، وجدتى تصم أذنيها ، تغلق كل النوافذ ، تندفع إلى المقهى تحطم لعليش الكلاف مذياعه المزعج ، لمحته فى خبء من الأعين المسهدة ، كان متكئاً بذراعيه على ركبتيه الناحلتين ، أحس بىّ مع أننى كنت أتقدم منه متسللاً كالقط السّرَّاق ، قلت ساخراً بلا مقدمات ، والفوهة الحديدية مسددة بين عينيه تقريباً :

- أسمعت ماسمعنا يابطل ؟! .

نظر إلىّ ثم قال فى نفسى وهو يهز رأسه باستخفاف :

- هه إنهم يمنحون الموتى أوسمة البسالة هذه الأيام ! .

- ولماذا لم تذهب ؟! .

- أنتظر حتى تدب الشجاعة فى أوصالك .

قلت هازاً رأسى باستغراب :

- شئ ما أجهله يلجم قوة سبابتى ، يمنعنى عن الضغط على طرف الزناد كلما رأيتك .

- الحق قوة ، الحلم قوة .

راحت الدموع تنحدر من عينيه فى أعماقى ، كنت على يقين من أن حديثاً ما كان يدور فى نفسينا معاً وفى آن واحد ، ذات الصور التى فى عينيه تتابع ؛ أراها مندهشاً ، راح يزرع الطريق بالألغام أمام الدبابات اللعينة التى كانت تزأر بوحشية مرعبة، فوقه السماء كجمرة من اللهب تتصدع ، كانت جرأته مثاراً للدهشة والعجب معاً دنا منه بحذر شديد وهو يزحف على بطنه مخاطراً بحياته تحت وطأة النيران وصوت المدفعية الهادرة :

- يجب أن تعود إلى الخندق فوراً .

- لا ، لن أدعهم يمرون فوق حلمنا الذى تحقق ، ارجع أنت ولتحمنى من الخلف .

لم تجد معه المحاولة فلاوقت للإلحاح والإيثار ، الأثرة هاهنا تكون أجدى وأنفع ، استدار عائداً على مضض ، ذفر قائلاً فى نفسه وأكاد أسمع شفتا قلبه ترتعشان :

- هيه ، إن الإنسان ينسى نفسه وكل شئ حين يرى حلمه الكبير يتحقق ، أمام عينيه ، على أرض الواقع اللاهبة .

أتمتم بصوته :

- الفدادين العشر ، الزوجة المليحة ، الطفل الغرير صاروا أشيائى التى لاأملك لها حيلة ، ننام معاً ظهراً لظهر ، مَنْ يصدق!؟، نستلقى برأسينا كل على ذراعه نرى نفس الحلم ، المدينة كلها ترفل فى أعيننا بثوب عُرسها الأبيض ، تطبع قبلة رقيقة على خدينا .....

قلت أقاطعه فى نفسى وقد عرانى الاندهاش ، فيما كانت عيناي ترصدان إنحناءة رأسه على صدره المتخشب :

- والسنوات الطويلة المُرة التى خلت ؟ .

- مابين أهلينا كان شيئاً لعيناً ومابيننا صار شيئاً آخر .

قلت فى نفسى :

- كذبتِ .

نفضت عن نفسى الأوحال ، تحاملت على ساقي ، لملمت شتات نفسى المتصارعة ومضيت عائداً أدراجى ، كان البيت مسرحاً للصمت الدامى ، الكل بدا غارقاً فى ملابس سود تقطر خليطاً من الدم والدموع ، كانوا ينتظرون الخبر السعيد ، يتأهبون لإطلاق الزغاريد ، وتفريق الشربات على بلدتنا والنجوع والكفور المجاورة ، وحين دقت ساعة عودتى بدوت أمامهم كعقرب ساعة يدور خارج إطار الزمن ، سحبتنى فى التو من مرفقى بسرعة متناهية وراء جدار ما فى البيت القديم ، راحت تلومنى وتقرصنى من لحم ذراعى بقسوة بالغة :

- يالقلبك الهين الليِّن ، سوف أبرقعك كالحريم .

عرفتها جادة دوماً لاتهزل ، قلت متأوهاً ومتلعثماً فى حديثى:

- لقد انتظرت حتى تمر ذكراه .

قالت محتدة :

- ليس قبل أن تثأر له أية ذكرى .

- لقد مات شهيداً .

- بل مقتولاً فى ظهره .

- لنطلب التحقيق فى الأمر إذن .

لطمتنى على خدى ، بدت أمارات الصدمة تسود على تقاطيب وجهى ، قلت بحزن شديد :

- إذن فهو ليس بطلاً ؟!! .

صفعتنى مرة أخرى على وجهى بيديها وعينيها معاً :

- اخرس أيها الجبان ليس لأحد فى الكون كله بطولته وشجاعته .

صمتت برهة ، ثم أردفت قائلة وهى تجتر من مقبرة النسيان قتلاها قتيلاً بعد قتيل ، وكانت مفاجأة مدوية لىّ :

- لقد رفضته لأن والدك كان لىّ كل شئ ، لم يكن بين هذا العاشق المتيم وبينا غير الدم .

همست فى نفسى :

- عشق وثأر !! .

انفجرت باكية ، احتبست الكلمات فى حلقها ، راحت تلفظها بصعوبة وكأنما تستنطق روحها الميتة :

- هـه وهاهـوذا قـد ظفـر بمـراده دونـى ، هيـه هـل صدقـت المذيـاع ، وأمازلـت مصـراً فـى قـرارة نفسـك علـى أنـه كان بطـلاً أريبـاً مـن أبطالنـا ؟ .

انتصـف الليـل علـى سـؤالها الـذى لـم أجـب عليـه بعـد ، رُفعـت المقاعـد مـن باحـة المنـزل الفسـيحة ، انصـرف المقـرئ وهـو يـكاد يتعثـر فـى ظـلام عينيـه ، كان شـخصاً مـا قصيـراً وافـر الهامـة يسـحبه مـن كـم جلبابـه إلـى الخـارج ، اتـكأت بذراعـى شـارداً علـى وسـادة اسـطوانية الشـكل فاقعـة اللـون كانـت مندسـة فـى حجـرى ، عينـاي تبرقـان مثـل نجمتـين لامعتـين فـى سـماء ليـل بهيـم ، وأفـكارى ثـورة لاتنـى عـن التوقـف ، أحـس أننـى قـد ضللـت الطريـق الطويـل الـذى لانهايـة لـه تحـت قدمـي ، وسـيل مـن الأسـئلة الجـارف يغرقنـى حتـى أنفاسـى ، كانـت كلهـا بـلا أجوبـة شـافية فـى نفسـى ، تمتمـت بصـوت مسـموع : «يبـدو أننـى أسـابق الأوهـام فـى دائـرة مغلقـة ، ولابـد مـن أن أفعـل شـيئاً يريحنـى إلـى الأبـد» .

تتبـدل نظراتـى ، يركبنـى العنـد ، أصبـح أمامـى هدفـاً واحـداً ولابـد مـن بلوغـه بـأى ثمـن كان ، أتنهـد وقـد أسـبلت عينـي ، أتمـدد بطولـى علـى الحصيـرة ، ينبعـث مـن رئتـي شـخيراً مزعجـاً ، أبـدو وكأننـى لـم أنـم منـذ أمـد بعيـد .

أمام مصرف المياه الآسنة كانت صورتى تتراقص على صفحتها وبجوارى البندقية العثمانلى مرتكزة على الأرض ، مسندة إلى جذع شجرة ، نقنقة الضفادع وهى تتواثب بين قدمي ، ثم وهى تقفز فى قاع الماء كانت تضفى على الليل الجامد شيئاً من الحركة ، تعثرت فجأة فى شئ ما أثناء سيرى الحذر ، أشعلت عود الثقاب ، انتثر الضوء الوئيد على بقع حمراء منتشرة على الأرض ، تلمستها بيدى مرتعباً ، كان سائلاً لزجاً مثل القار الأسود يسيل من بين أصابع يدى ، ارتعشت ، نظرت إلى فوهة بندقيتى نظرة اتهام ، وشك فى الذات حين تفقد وعيها فى لحظات الضغط الجنونى ، كدت أغيب عن الوعى ، لأصدق نفسى ، لمحت ورقة صغيرة مهترئة كان طرفها يطل من بين إصبعيه السبابة والوسيط ، جعلت أسحبها برفق وقد ارتعدت فرائصى تماماً ، رحت أفرد صفحتها الممزعة الصفراء أمام ذلك الضوء الشاحب الذى ترسله عيناي على مضض ، الكلمات ترتعش على ضوء عود الثقاب وتنطفئ حيناً حتى أشعل غيره ، علت تمتمتى وهى تنضح بالدموع والأسى :

«صديقى العزيز الذى صار لى أكثر من أخ ، لقد رزقت بولد هصور منذ أيام ، لم يسموه حتى الآن ، ينتظرون عودتى من الجبهة، بل عودتنا معاً وقد تشابكت أيدينا ببعضها البعض ، ولكنى على ثقة من أن اسمه سوف يكون مفاجأة كبيرة لك ، ولهم، ولكن لِمَ لا مادمنا سنعيش معاً على الأرض التى انطبع عليها حلمنا الكبير ، لتشرب جذور الأرض من ذرات عرقنا الـ.....!!» .

عند هذا الحرف كان حزاً أسود من صنع الزمان المتباعد قد قطع عن عيني استرسال الحلم فى محجريهما ، مرة أخرى فقدت صوابى ولسانى ، تناثرت نظراتى هباءً ، وبلاهدف فى غابة الأشجار الكثيفة التى تحدق بىّ من كل ناحية وكأننى أسير فى عالم شبحى كئيب .

جن جنونها ، راحت تركلنى بقدميها ، وتضربنى وهى تهيل التراب على طرحة رأسها الدكناء ، وتعض بنواجذها المدببة على لحم ذراعى ، تسبنى ، وتسحبنى من تحت نعشه الطاهر ، كانت الأعين المتصارعة شديدة الكلوح تفتش عنى ، تواريت منهم بينهم، يركبون رؤوسهم إلى الجحيم ، كانت الورقة الصفراء تذوب فى عرق قبضة يدى شيئاً فشيئاً ، السماء وحدها ترقبنى بعينيها الواسعتين ، وتسمع دبيب قدماى على الأرض وأنا أحثهما على المضى إلى الأمام حيث منازل عائلة الفقيد ، وأصرخ مقسماً بحماس منقطع النظير :

- لن أسمح للحظات الكئيبة أن تكرر نفسها .

صوت رهيب دوى فى جنبات البلدة الكبيرة ، سَقطتُ أرضاً كحمامة مذبوحة ، المدينة كلها تحلم فى عيني ، الرصاص والدم فى الطريق !! .

●●●